الموازنة

بين الالعوبة الالهية ورسالة الغفران

— او —

بين ابي العلاء المعري ودانتي شاعر الطليان

= ٧ =

من المعلوم ان الشعر ليس هو ألفاظ مجموعة ، تُركّب على أوزان موضوعة وقوافٍ مصنوعة ، ولكنه صناعة كصناعة الاوتار والألحان ، لا تنال حظها في الأذان ، ما لم تستكمل شروطها من حسن التدرج والتنقل في الابراج بحيث لا يقع بينها تنافر او تناكر ، وان يكون النقر على الأوتار ، او النفخ في المزمار ، نسبياً اي موقعاً ومقطعاً توقيعاً وتقطيعاً يناسبان المقام ، فليست موسيقى الحرب وتحريك الشجاعة في نفوس الجند ، كموسيقى الصفو والهناء بين أحباب قد عكفوا على الراح ، وتبادلوا عتيقها بالطاسات والأقداح ، في روضة قد فُتحت أزهارها ، وترقرق ماء سواقيها وأنهارها ، كما ان حسن الصوت وحده لا يستلذّه السمع ، ما لم يصحبه احسان الصناعة في التلحين ، وهذا لا يستجمع شروط الاجادة ما لم يستكمل حسن اللفظ وفصاحة الالقاء واختيار الشعر العالي الذي يناسب مقام الغناء كما هو معلوم ، وبعد ذلك فاذا اجتمع هذا كله لمغنٍّ ، فخلط النهاوند بالسيكاه والعراق بالدوكاه والحجاز بالنوى والعجم بالرصد والصبا ، لاستنكرت الأذان غناءه ولو سمي ابراهيم او اسحق النديم .

فاذا كان هذا هو الشأن في فن الموسيقى او الغناء وركنهما حسن الصوت ، فما القول في الشعر وركنه الاول الخيال ؟

ومما تقدم ومما سيأتي ، يتضح لك ان الخلط في الالعوبة الآلهية هو عيب من افحش عيوبها ولا يعدّه حسنةً الا من قصر باعه في فن الشعر ، وقل بصره في فن النقد .

واذا تقرر ان الخيال أعظم أركان الشعر ، وان أعذب الخيال ما اجتمع فيه الحسن والجمال ، اذ كان فيهما سرور النفس وملاذها ، او تسلّيها وعزاؤها ، فأي سرور لها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في ذكر الوحوش والاحناش ووصف أشكالها القبيحة وشراسة افتراسها ونهشها الاجساد البشرية على ضروب لم تمرّ في بال عاقل ؟ واي تسلية او عزاء في وصف النيران والسموم ولواذع الجليد ونتن الرياح الهوج وتصوير أناسٍ قطع نصف جسمهم طولاً وبانت أمعاؤهم وقلوبهم وأكبادهم ، تسيل دماؤهم . وسواهم وقد كسيت أجسادهم ثياباً من القروح يكشطونها باظافر نارية ليلاً نهاراً ؟ الخ الخ .

لعمري ان هذا الباب من أبواب الشعر لم يخطر في مخيلة شاعر عربي ، ولا أحسبه يدخل في أبواب الشعر الاعجمية ، وحسبنا برهاناً على ذلك ان لأليذة المنسوبة الى هوميروس وهو المعدود باجماعهم شيخ شعراء الدنيا لم تُعَدّ في الطبقة الاولى من الشعر عندهم ، الا لما اشتملت عليه من وصف الوقائع الحربية وآلاتها ، ومآثر السلف واخبارهم في سلمهم وحروبهم ، وما يتداخل ذلك من مصارع الغرام ، واكرام الضيف الى مثلها من الحالات التي تكاد تلمس في وصفها حقيقة أحوالهم الفطرية .

وقل مثل ذلك في شعر فيرجيل وكله شعور لطيف واحساس مفعم بالرقة قد بلغ غاية التمام من الاحسان ، حتى لتكاد تشربه الاذان ولا تملّ من النظر اليه الأعيان .

فاذا عُلم هذا تفرع عنه ان التبويب شرط اساسي من شروط التأليف والانشاء لا في النثر فقط بل في الشعر ايضاً كما أشرنا الى ذلك في منهل الوراد[1] ولذلك عدوا ملحمة هوميروس في رأس الشعر عندهم لانها اشتملت على عموم حادثة تاريخية سرد فيها كل مايتعلق بتلك الحادثة وهي في الشعر من باب الشعر القصصي ، تنتقل فيها من واقعة الى واقعة ومن بلد الى بلد فتشهد الحوادث مصورة باللفظ وليس فيها للشاعر غير الرواية اي سبك الجمل واختيار الالفاظ وإجادة النظم وانسجامه اي خلوّه من التعقيد ، وتصوير المعاني في قوالب من اللفظ بحيث تتمثل أشخاص القصة للعيان وتحلّ أرواحها في ذلك البيان ، وتسيغ النظم في ذهن القاريء او السامع سوغ الماء الزلال في فم الظمآن .

---

(١) منهل الوراد في علم الانتقاد (كتاب) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقل مثل ذلك في شعر فيرجيل فانه لا يتباعد عن موضوعه الا بمقدار ما يلجئه التشبيه او الوصف ، بحيث لا يتيه ذهن المطالع في صحاري الاشارات والالغاز ، او يغرق في بحار من قواعد العلوم المختلفة والمسائل المتباينة كتسمية آلهة النصارى بجوبيتر آلهة اليونانيين ، فيضل الغرض الاصلي وهو موضوع القصة .

ومن العيوب التي عدّها نقادو الافرنج على الشعر العربي ، ان الشاعر الجاهلي هو بطل روايته ، فلا يكاد يخرج عن نفسه ، وهو في ذلك على نقيض مما ذكرناه عن حسنات الياذة هوميروس ، ولعلهم في ذلك على هدىً ، فما بالهم تغاضوا عن عدّ هذا العيب الواضح في العوبة دانتي عليه ؟ فانه جعل نفسه بطل روايته الطويلة المملة واكثر فيها من مدح ذاته والمفاخرة بنظمها وهو مما عبناه نحن ايضاً على شاعرنا المتنبي وقد كان يفاخر مزاحميه عند سيف الدولة ملك حلب من شعراء عصره ولعل له عذراً في ذلك انه كان يحرص على تلك المنزلة الرفيعة وعلى ما كان يناله من صلات الملك المتناهية في الكرم ، ولم يكن دانتي في مثل تلك الحال عند مباهاته في غير موضعٍ من الالعوبة .

وقال المتنبي مفاخراً :

ما نالَ اهل الجاهلية كلُّهم شعري ولا سمعت بسحري بابلُ

وهو في شعره هذا ينطق بلغتهم ، وقد جاء بالرشيق من اللفظ والسهل الممتنع في الغزل والنسيب والمدح والوصف والقصة والحكمة والفخر بما لم يأت بمثله شاعر قبله ، اما دانتي فقد جاء بالالعوبة الالهية التي فاخر بها وعدها معجزة المعجزات ، وهي اول ما ينعى عليها انها لم تكن باللغة اللاتينية الفصحى لغة من تقدمه بل كانت يومئذ لغةً عامية لغة الاغاني وفيها من الكَشَفات ما نحن في نقده وتعداده ، وما يفرض على الناقد المنصف ان لا يغضي عليه ، ولسنا نرى وجهاً لتسامح الشراح والنقادين في تعييبه بما يعاب عليه سواه .

ومن عيوب الانشاء الفاضحة تكرار الالفاظ والمعاني ، وقد أجمع على ذلك علماء الفصاحة والبيان في اللغات الاعجمية كعلماء اللغة العربية وتشددوا في ذلك على الشعراء فوق تشددهم على الكتاب لما هو مطلوب في صناعة الشعر من البلاغة والجزالة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولاستقلال بيت الشعر بالمعنى ، وان تجاوزه فالى بيتين والعرب بمحاسن الشعر أبصر الامم بلا مدافع .

فالتكرار في أُلعوبة دانتي مما يملي بالسأم وهو غير قاصر على الالفاظ بل المعنى هو هو في كل أغنية من الاربع والثلاثين أغنية في جهنم ومثل ذلك في المطهر والسماء لا يختلف الا بوصف السرداب اوالدرج اوالقوس المنحنية اوالمضلعة او الوحش الناري الغريب او الشيطان ذي الرؤوس او الافواه المتعددة او اسم رجل مجهول من جيرانه او بعض معارفه وكم من ذلك ؟ او حادثة مكانية تافهة ، او قال لي ابي ، وقلت لابي وابي لي ، وانا لابي الى غير ذلك من الحقير المبرم المضجر .

ومن عيوبها الواضحة انها لم تتجرد عن السفليات ، ولم يظهر لنا صاحبها في مظهر من الاخلاص ، وانما هي مشبعة بالانانية ، فالخائن فيها مَن لا يرى رأي دانتي او من خالف مذهبه ، وعدو الوطن مِن قومه مَن لم يكن من حزبه ، وعدو الدين من لم يقل بقوله السياسي ولو كان مطراناً بل البابا نفسه ، وساقطو المروءة اولئك الذين لم يعاونوه على نيل مطامعه ، بل يتجاوز الى الطعن على أُمة باجمعها وشتمها لان ملكها لم يسعف مطلب اميره او حزبه ، كما شتم الامة الفرنسية في غير موضع من أُلعوبته ، وهو لا يأبى إغراء ملك غريب على اكتساح بلاده وإنزال أشد العقوبات باهل وطنه .

ومن عيوبها الاثيمة ذهاب صاحبها الى أبعد ما يتصوره الفكر الانساني من الحقد والضغينة وحب الانتقام ، فانه لم يكتف باغراء امبراطور المانيا على اكتساح بلاده وصب البلاء على اهل وطنه ، بل تتبعهم في جهنم ، ولم يرو غليله احتراقهم بتلك النيران وما كانوا يقاسونه من نهش الافاعي وضرب المقامع النارية على ما وصفها مما ترتعد الفرائص من ذكره ، بل كان يتلذذ بمشاهدتهم (او تصور مشاهدتهم) في تلك العذابات ، ويقول لأُبالستيهم زبدوهم حرقاً وتعذيباً ، بل يخاطبهم قائلاً ذوقوا لذائذ هذه الجحيم فانكم فيها خالدون .

ومن أشد عمى تعصبه انه يقذف في جهنم بكل من يمر في باله او تحت رأس قلمه من مخالفيه في الرأي او في الدين كما ذكرنا ، حتى انه يقذف ببني دعا الوثنيين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهداهم الى عبـادة اله دانتي نفسه ، وليست دعواه بالنبوة دون دعاوي سواه من الانبياء .

بقي القول ان دانتي أراد ان يحول رسالة الغفران من رسالة دعاء كما فهمهـا من ظاهر لفظها العربي او من ترجمتها اللاتينية الى افكوهة شعرية اوأُلعوبة تمثيلية ولذلك دعاها بالالعوبة .

غير ان تسميتها بالالعوبة (Comedia) لا يعني انه وضعها كما وضع بعده شكسبير وموليـار وراسين وغيرهم العوباتهم للتشخيص في دور التمثيل والملاعب لان مراده منها ينافي هذا الغرض كل المنافاة لاسباب :

منها انها مما لايمكن تمثيلها في ليلة واحدة بل ولاليلتين وهذه الطريقة اي التشخيص المتتابع على عدة ليال او على ليلتين لتتميم حادثة التشخيص ليست مألوفة عند الفرنجـة وان كانت اليوم مألوفة عند اليابان .

ومنها ان كل ما صوّره في جحيمه ومطهره — وهو الجزء الاعظم من الالعوبة — مصوّر في الظلمات المدلهمات والرياح المنتنة وذلك مما يستحيل مشاهدته او تصويره بغير اللفظ ولا يمكن احتمال شمه في مكان محدود .

ومنهـا وهو الاهم ان دانتي لم يكن ليرضى بتمثيل الفردوس وأرواح القديسين والقديسات والملائكة ، بل الله ذاته ، على مسرح في ملعب ، وقد ذكرنا فرط تحمسه الديني غير مرة فيما تقدم .

« للكلام صلة » عضو المجمع العلمي

قسطاكي الحمصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net